جدّ السيّدة نفيسة
زعيم أهل البيت

كان الإمام الحسن جدّ السيدة نفيسة عميد أهل البيت بعد أبيه، وقد اختلف العلماء فى تعريف أهل البيت اختلافًا كبيرًا.

ويرجع الاختلاف إلى تفسير الآية الكريمة ﴿يا نساء النبى لستنّ كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول، فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفًا * وقرْن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾.

والفريق الأول: من المفسرين يتمسكون بالسياق ويرون أن أهل البيت المذكورين فى الآية هن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقولون إن المراد بالبيت بيت النبى صلى الله عليه وسلم ومساكن زوجاته لقوله: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن﴾ وأيضًا السياق فى الزوجات من قوله: ﴿يأيها النبى قل لأزواجك﴾ إلى قوله ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾.

وعن طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾.

يقولون إنها نزلت فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم - ويذهب عكرمة إلى أن البيت أريد به مساكن النبى صلى الله عليه وسلم - ويقول - من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم - ويروى عن عكرمة أنه كان ينادى فى السوق أن الآية نزلت فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم.

ويقول الزجاج : إن أهل البيت فى الآية المذكورة يراد بهم نساء النبى صلى الله عليه وسلم - وقيل يراد بهم نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته.

ويقول بعض المفسرين : إن ورود الآية فى شأن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يغلب على الظن دخولهن فيهن والتذكير للتغليب فإن الرجال وهم النبى وعلىّ وأبناؤهم غلبوا على فاطمة وحدها أو مع أمهات المؤمنين ثم أكد التكاليف المذكورة بأن بيوتهن مهابط الوحى ومنازل الحكم والشرائع الصادرة من مشرع النبوّة ومعدن الرسالة ثم ختم الآية بقوله تعالى : ﴿إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾ إيذانا بأن تلك الأوامر والنواهى هى لطف منه فى شأنهن وهو أعلم.

وأما ما يتمسك به الفريق الأعم والأكبر من المفسرين فيتجلى

فنما روى عن أبى سعيد الخدرى قال - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نزلت هذه الآية فى خمسة فى وفى علىّ وحسن والحسين وفاطمة» رضى الله عنهم جميعًا وأخرجه الترمذى، وصححه ابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سننه من طرق - عن أم سلمة : قالت فى بيتى نزلت ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ وفى البيت فاطمة وعلىّ والحسن والحسين - فجللهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكساء كان عليه ثم قال : «هؤلاء بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا».

وعن أم سلمة أيضًا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى بيتها على منامة له عليه كساء خيبرى، فجاءت فاطمة ببرمة فيها حريرة - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ادعى زوجك وابنيك حسنًا وحسينًا» فدعتهم، فبينما هم يأكلون، إذ نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم بفضله.. كساءة فغشاهم إياها - ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها إلى السماء ثم قال : «اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»، قالها ثلاث مرات.

قالت أم سلمة : فأدخلت رأسى فى الستر، فقلت : يا رسول الله وأنا معكم - فقال : (إنك إلى خير).

وفى رواية أخرى ومن طرق عديدة وصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ومعه علىّ وفاطمة وحسن وحسين وقد أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا وأجلس حسنًا وحسينًا كل واحد منهما بأعلى فخذه، ثم لفّ عليهما كساءً ثم تلا هذه الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾ وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا».

وفى رواية: «اللهم هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على إبراهيم إنك حميد مجيد».

وفى رواية أخرى لأم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ ثوبًا وجلله فاطمة وعليًا والحسن والحسين وهو معهم وقرأ الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس﴾ قالت فجئت أدخل معهم فقال: «مكانك - إنك على خير».

وعنها أيضًا - قالت: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته يومًا إذ قالت الخادم: إن عليًا وفاطمة بالسدّة، قالت: فقال لى: «قومى فنحى عن أهل بيتى». قالت فقمت فتنحيت فى البيت قريبًا فدخل علىّ وفاطمة ومعهم الحسن والحسين وهما صبيان صغيران فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره وقبلهما واعتنق عليًا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى وقبّل فاطمة وقبل عليًا فأغدق عليهم

خميصة ثم قال : « اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى » قلت : وأنا يا رسول الله قال : وأنت.

والظاهر أن هذا الفعل تكرر عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيت أم سلمة، يدل عليه اختلاف هيئة اجتماعهم وما جللهم به ودعاؤه لهم وجواب أم سلمة به - والمنع وقع من دخولها معهم فيما جللهم به وعليه يحمل قولها فى الحديثين « وأنا معهم »، أى أدخل معهم لا أنها ليست من أهل البيت بل هى منهم - وكذلك لما قالت فى الحديث الآخر « وأنا » ولم تقل معهم أى أنا أيضًا إلى الله لا إلى النار، قال : وأنت إلى الله لا إلى النار، وكذلك لما قالت : وأنا من أهل البيت. قال : وأنت من أهل البيت وابنتك أيضًا.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنه دخل صلى الله عليه وسلم على زينب بنت أبى سلمة فجعل حسنًا من شق وحسينًا من شق وفاطمة فى حجره فقال : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد »، وأنا وأم سلمة جالسان فبكت أم سلمة فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما يبكيك؟ فقالت : يا رسول الله خصصتهم وتركتنى وابنتى، فقال : إنك وابنتك من أهل البيت.

وعن أبى عمار قال : إنى لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا

عليًّا رضى الله عنه فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن هذا الذى شتموا. إنى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء علىّ وفاطمة وحسن وحسين فألقى عليهم كساءً له ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا».

وفى رواية أخرى: حدثنا الإمام محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعى، حدثنا شداد بن عمار قال: دخلت على واثلة بن الأسقع رضى الله عنه، وعنده قوم فذكروا عليًّا رضى الله عنه فشتموه فشتمته معهم، فلما قاموا قال لى: شتمت هذا الرجل؟ قلت: قد شتموه فشتمته معهم، قال ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: بلى، قال: أتت فاطمة رضى الله عنها فأجلسها بين يديه وأجلس حسنًا وحسينًا، رضى الله عنهما كل واحد منهما على فخذه، ثم لفّ عليهم ثوبه - أو قال كساءه - ثم تلا صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى، وأهل بيتى أحق».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى شريح بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يزيد قال: دخلت مع أبى على عائشة رضى الله عنها فسألتها عن علىّ رضى الله عنه فقالت رضى الله عنها: تسألنى

عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تحبه ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا رضى الله عنهم فألق عليهم ثوبًا، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا».

وقال الإمام الحسن رضى الله عنه فى بعض خطبه: «وأنا من أهل البيت الذى كان جبريل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»، وقال أيضًا: «أنا أهل بيت أكرمنا الله بالإسلام واختارنا واصطفانا، وأذهب عنا الرجس وطهرنا تطهيرًا، لم تفترق الناس فرقتين إلّا جعلنا الله فى خيرهما من آدم إلى جدى محمد صلى الله عليه وسم، فلما بعثه الله للنبوّة، واختاره للرسالة وأنزل عليه كتابه، ثم أمره بالدعوة إلى الله عز وجل، فكان أبى أوّل من استجاب لله ولرسوله، وأوّل من آمن وصدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله فى كتابه المنزل على نبيه المرسل: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾. يقول: فجدّى الذى على بينة من ربه وأبى الذى يتلوه وهو شاهد منه.

والفريق الثالث من المفسرين جعل الآية شاملة للزوجات، ولعلىّ وفاطمة، والحسن والحسين، أما الزوجات، فلكونهن المراد فى

سياق هذه الآيات ولكونهن الساكنات فى بيوته صلى الله عليه وسلم النازلات فى منازله، ويؤيد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره، وأما دخول علىّ وفاطمة والحسن والحسين، فلكونهم قرابته وأهل بيته فى النسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول، وهى أحاديث كثيرة، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل ما يجب إعماله وأهمل ما لايجوز إهماله وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبى وابن كثير والطبرى وغيرهم.

ويقول بعض المفسرين من هذا الفريق: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس﴾، فاستعار للذنوب الرجس وللتقوى الطهر، وإنما أكد إزالة الرجس بالتطهير لأن الرجس قد يزول ولم يطهر المحل بعد، وأهل البيت نُصب على النداء أو على المدح وسنرى فى شرح آية المباهلة أنهم أهل العباء، النبى صلى الله عليه وسلم لأنه أصل، وفاطمة رضى الله عنها والحسن والحسين رضى الله عنهما بالاتفاق، والصحيح أن عليًا رضى الله عنه منهم لمعاشرته بنت النبى صلى الله عليه وسلم، وملازمته إياه. وورود الآية فى شأن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يغلب الظن دخولهن فيه، والتذكير للتغليب، فإن الرجال وهم النبى وعلىّ وأبناؤهم غلبوا على أم سلمة وفاطمة وحدهما أو مع أمهات المؤمنين، ثم أكد التكاليف المذكورة أن بيوتهن

مهابط الوحى ومنازل الحكم والشرائع الصادرة من مشرّع النبوة ومعدن الرسالة، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إن الله كان لطيفا خبيرا﴾ إيذانًا بأن تلك الأوامر والنواهى لطف منه فى شأنهن وهو أعلم - وكذلك فإن فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أن الظاهر من الآية الكريمة أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم.

والفريق الرابع من المفسرين يقول: هم بنو هاشم، فعن زيد ابن أرقم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبًا فقال: «أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثا» فقيل لزيد: من أهل البيت؟

قال: أهل البيت من حرم الصدقة بعده.

وقيل: من هم؟ قال: آل علىّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت بيت النسب بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ أى اذكرن موضع النعمة إذ صيركن الله فى بيوت يتلى فيها آيات الله والحكمة، أو اذكرنها وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ الله، أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهداها.

وفى الصواعق: أن المراد بالبيت فى الآية يشمل بيت نسب النبى صلى الله عليه وسلم وبيت سكناه، فتشمل الآية أزواجه عليه السلام، وهو ما ذكرناه فى مقدمة هذا البحث عن ابن عباس،

وما ذكره أيضًا البيضاوى ويدل عليه ما قبل الآية وما بعدها.

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنى زهير بن حرب وشجاع بن مخلد جميعًا عن ابن علية قال زهير حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنى أبو حيان حدثنى يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين ابن سبرة وعمر بن سلمة إلى زيد بن أرقم رضى الله عنه، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عله وسلم، قال: يا بن أخى والله لقد كبرت سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما حدثتكم فاقبلوا ومالا فلا تكلفوا فيه، ثم قال؛ قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومًا خطيبًا بماء يدعى «خما» بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله تعالى، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، فحثّ على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال: «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى - أذكركم الله فى أهل بيتى» ثلاثًا، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟، قال: نساؤه ليسوا من أهل بيته، ولكن من أهل بيته من حرم

الصدقة بعده، قال: ومن هم قال: هم آل علىّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضى الله عنه، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم.

وعن زيد بن أرقم أيضًا أنه ذكر الحديث بنحو ما تقدم، فقيل له: من أهل بيته، نساؤه؟ قال: لا، وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها، فترجع إلى أبيها وقومها... أهل بيته أصله وعصبيته الذين حرموا الصدقة بعده.

ويؤيد السيد باقر شريف القرشى هذا الحديث: فيقول فى كتابه عن حياة الإمام الحسن - رضى الله عنه: «إن الأخبار الصحيحة التى لا مجال للشك فيها فى سندها وفى دلالتها على اختصاص الآية الكريمة فى الخمسة من أهل الكساء عليهم السلام، وعدم تناولها لغيرهم من أسرة النبى صلى الله عليه وسلم، ومعنى ذلك أن ليس لنساء النبى صلى الله عليه وسلم نصيب فى هذه الآية، فقد اختص بها أهل الكساء ودلل على ذلك بما يأتى:

١ - خروجهن موضوعًا عن الأهل فإنه موضوع لعشيرة الرجل وذوى قرباه ولا يشمل الزوجة، ويؤكد هذا المعنى ما صرح به زيد ابن أرقم حينما سئل من أهل بيته - أى النبى صلى الله عليه وسلم - نساؤه؟ فقال: لا - وايم الله - إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبيته الذين حرموا الصدقة بعد.

٢ - أننا لو سلمنا أن الأهل يطلق على الزوج فلا بدّ من تخصيصه - ويفند السيد باقر القرشي ما قاله عكرمة يقول: إن عكرمة قال: إن الآية نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم وكان ينادي بذلك في السوق. ويبلغ من إصراره أن كان يقول: «من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي» ومن رأى السيد باقر القرشي أن عكرمة لا يعوّل على روايته لأنه عرف بعدم الدقة، فعن ابن المسيب أنه قال لمولى اسمه برد: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس - وعن عثمان بن مرة قال للقاسم: إن عكرمة حدثنا عن ابن عباس كذا، فقال القاسم: يا بن أخي، إن عكرمة كذاب يحدث غده حديثًا يخالفه عشيًّا، ومع اتهامه بالكذب كيف يمكن التعويل على حديثه؟ ويستمر الأستاذ باقر شريف في تحليل شخصية عكرمة، وينتهي بنتيجة أنه لا يمكن التعويل على روايته مضافًا إلى أنها من أخبار الآحاد ولا تصلح لمعارضة الأخبار الصحيحة المتواترة.

ويقول السيد محمد صادق الصدر[1]: إن الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم، وكله بنون النسوة في الآيات السابقة على آية التطهير إلا هذه الآية ﴿إنما يريد الله﴾، ولو أراد الله تعالى أن يفصح عن عصمتهن لقال: إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس

---

(١) الإجماع في التشريع الإسلامي.

ويطهركن تطهيرًا»، والآيات كلها خاصة بالنساء وليس للرجال ذكر ليقال إن الله أتى بالتذكير على نحو التغليب فيشمل النساء والذكور. إن الله سبحانه وتعالى استأنف التأنيث بعد آية التطهير فقال تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾، أليس التأنيث المتكرر فى كل الآيات السابقة لآية التطهير والملاحظة لها كان مقصودًا، ولنذكر الأسباب المؤدية إلى نزول آيات النساء التى خصت زوجات النبى صلى الله عليه وسلم فإننا ان أمعنّا النظر بمنطوق الآيات وبسبب النزول نعرف أن آية التطهير لا يمكن انطباقها على الزوجات بصورة لا تقبل الشك.

ولو أراد المنصف أن يقتصر على ذلك لكفاه، فكيف وقد وردت أحاديث كثيرة متواترة (بينّا ذلك سابقًا) مجمع على صحتها تدعم هذه النظرية وتساعد على فهم ذلك وتبرهن - بما لا مزيد عليه - على أن لآية التطهير أسبابًا لا تتصل بالأسباب الأولى دعت إلى نزولها، وقد شهد بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجتاه أم سلمة والسيدة عائشة، وربيبه عمر بن أبى سلمة، وروى ذلك كثير من الصحابة والثقات، ولم يتفق أن عنى المسلمون بمثل ما عنوا فى شأن هذه الآية الكريمة.

أما سبب نزول آيات النساء فقد قال الخازن، فى تفسيره ما نصه: «سبب نزول هذه الآية، أن نساء النبى صلى الله عليه

وسلم طالبنه من عرض الدنيا شيئاً، وطلبن منه زيادة فى النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فهجرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلى ألا يقربهن شهرًا، ولم يخرج إلى الصحابة، فقالوا: ما شأنه؟ وكانوا يقولون: طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، فقال عمر: لأعلمن لكم شأنه، قال: فدخلت على رسول الله فقلت: يا رسول الله أطلقتهن؟ قال: لا، قلت: يا رسول الله إنى دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله نساءه أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: نعم إن شئت، فقمت على باب المسجد ونَاديت بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله نساءه».

«روى الواحدى بالإسناد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا مع حفصة فتشاجرا بينهما فقال لها: هل لك أن أجعل بينى وبينك رجلا؟ قالت: نعم، فأرسل إلى عمر فلما أن دخل عليها قال لها: تكلمى، فقالت: يا رسول الله تكلم ولا تقل إلّا حقًا. فرفع عمر يده فوجأ وجهها، ثم رفع يده فوجأ وجهها، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: كف، فقال عمر: يساعدوة الله، النبى لا يقول إلّا حقًا، والذى بعثه بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدى حتى تموتى، فقام النبى صلى الله عليه وسلم، فصعد إلى غرفته، فمكث فيها شهرًا لا يقرب شيئًا من نسائه يتغدى ويتعشى فيها، فأنزل الله تعالى هذه الآيات».

ونستطيع أن نجزم أن السبب الرئيسى من هذه الأسباب التى استدعت غضبه وهجره لنسائه، هو الطعن الموجه إلى عدالته من زوجة تعرف نبوّته، وتفهم أنه المثل الأعلى للحق والعدالة.

لبث النبى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ينتظر الوحى، فورد الأمر بأن يخير نساءه بالبقاء أو الفراق: ﴿يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجرا عظيمًا * يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرًا *ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحًا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقًا كريمًا * يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفًا * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله...﴾ الآيات.

فخير الرسول الكريم نساءه بعد نزول آية التخيير بين البقاء والطلاق فاخترن كلهن البقاء وآثرن الله ورسوله والدار الآخرة، وختمت هذه المشكلة برضا الرسول صلى الله عليه وسلم، وعودة الحياة الهانئة إلى بيت الزوجية فى سعادة ووئام.

هذا البيت الذى كان جوّه مكفهرا محزنًا، والذى صورته

الآيات السابقة وردت ضمنها آية التطهير ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ ويستمر الأستاذ محمد صادق الصدر فى شرح وجهة نظره ويقول:

فماذا قصد الإله الكريم بهذه الآية؟

هل نفهم منها ما فهم عكرمة لا: إن عقلنا يأبى ذلك. وإن لساننا العربى لا يفقه لغتها، ولا أخال أن المبتدئ فى اللغة يقر هذا الفهم إذا كان عقله سليمًا لم تؤثر فيه الأغراض والأمراض.

كيف تنطبق الآية على النساء، وقد شهد الله لأهل البيت بالعصمة من الذنوب، فى حين أنا نعلم أن سبب الهجر قد أداهن بالذنب، كما أن هجرهن له صلى الله عليه وآله وسلم أثبت عليهن النشوز الشرعى، وهو محرم صدوره مع الرجل أيًا كان، فكيف إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فرضت طاعته عليهن كزوج وكرسول الله صلى الله عليه وسلم، يضاف إلى ذلك التشكيك من بعضهن بعدالته، وهو النبى العادل الذى لا يمكن الشك فى قوله أو عمله مما هو غنى عن البيان.

إذن فكيف يشهد الله تعالى لهن بالعصمة؟ إذا كن المقصودات فى (أهل البيت)، وهن فى حال التلبس فى الذنب؟ هذا لا يصدر من الناس، فكيف ننسبه إلى الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا!.

وإذا كن غير مقصودات كما اتضح ذلك، فمن هم إذن أهل

البيت، ولماذا ذكر هنا هذا البيت؟

للرسول الكريم صلى الله عليه وآله بيتان: بيت الزوجية، و«بيت النبوّة».

أما بيت الزوجية، فلم يكن بيتًا واحدًا، وإنما كان بيوتًا متعددة تسكنها زوجاته صلى الله عليه وسلم، كما يشعر بتعددها صيغة الجمع فى قوله تعالى ﴿وقرن فى بيوتكن﴾ وفى قوله: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن﴾.

وأما «بيت النبوّة» فقد كان منحصرًا فى بيت واحد تسكنه ابنته الزهراء وابن عمه علىّ وريحانتاه الحسنان عليهم السلام.

وحيث قد انتفت العصمة عن تلك البيوت الممثلة بالأزواج بالنظر لارتكابهن المعصية، وخروجهن عن الطاعة، اتجهت العصمة إلى البيت الواحد، وأعلنها الوحى بقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾، فأورد البيت بالمفرد، وجاء بأل للعهد، ونصب أهلا ليخصّ بالمدح أهل البيت بمفردهم فى ظرف لا يمكن توجيه المدح إلى غيرهم.

ولو أراد بيوت السكن التى تقدم ذكرها لكرر جمعها، وألحق بها نون النسوة لتكون المقصودة بالذات.

فذكر البيت مفردًا ومتوسطًا بين آيتين فى كل منهما جاء البيت بالجمع لأكبر دليل على أن هذا المفرد ليس من تلك البيوت، وأن

أهله ليسوا مثل أهلها، فقد كان كل فرد من هذا البيت الطاهر أقرب الناس وأطوعهم إلى امتثال أمره ونهيه صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين.

إن بيت الزوجية يكونه السبب بإيقاع العقد الشرعى فيجعله سكنًا ومسكنًا وتقوض دعائمه فى كلمة واحدة تؤذن بالطلاق فإذا البيت يتهدم. وإذا بالزوجة تصبح امرأة أجنبية تخرج من أهله إلى أهلها والبيت الثانى «بيت النبوة» يكونه النسب. وكانت آية التطهير حجر الأساس لبناء كيان هذا البيت، لأن العصمة ملكة فى النفس تمنع صاحبها من أن تشوبه شائبة، فهو أبدًا طاهر مطهر من طهر طاهر. وقد أراد الله تعالى بعد أن عرّف الناس بالبيت الأول - أن يعرّفهم منزلة البيت الثانى، ليتضح الفرق بين البيتين، فيفهم كل بيت على واقعه. وحتى لا يحصل الالتباس، أو يطبق فى حقهما القياس فيكون كقياس إذ على إذا والمبتدأ على الخبر.

وهم كما قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن أهل البيت لا يقاس علينا أحد». إن البيت الأول تشيده كلمة وتهدمه كلمة، وإن البيت الثانى خالد ما خلد الدهر، لأنهم سلام الله عليهم أمان لأهل الأرض، قال جدهم صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الإمام أحمد فى المناقب: «النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتى أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض».

وهذا الحديث يشعرنا بوضوح ببقاء أهل البيت ذخرًا للناس، يهتدون بهديهم ويستضيئون بأنوارهم، كما يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما رواه عمر بن الخطاب «قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى خلوف من أمتى عدول من «أهل بيتى» ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل فانظروا بمن توفدون».

وإذا كان ابن نوح كتب عليه الغرق، لأنه عمل غير صالح فلم يكتب له النجاة فى سفينة نوح أبيه، فإن أهل البيت هم سفن النجاة يسعفون كل من ركب سفينتهم وتمسك بحبل ولائهم.

إن أتباعهم يمخرون العباب متمسكين بأعدال الكتاب، كما قال صلى الله عليه وسلم: «مثل أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تعلق بها فاز، ومن تخلف عنها زج فى النار» هذا هو البيت الثانى الذى أراد الله عز وجل أن يعرف الأمة به فى قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾ فجاءت الآية الكريمة مشتملة على ما يوجب تركيز الثقة، وتوطيد دعائم العصمة فى كل فرد من أفراد هذا البيت الطاهر وينادى بفضل آل الرسول أعدال الكتاب، وقادة الأمة إلى الحق والصواب هذا هو البيت الذى أسس الله قواعده، وشيّد أركانه، وقال فيه

رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت»، كما أخرجه الإمام أحمد فى المناقب.

ومن حديث أم سلمة، والذى سبق وأشرنا إليه، يرى السيد محمد الصدر أن هناك عدة أمور حرص عليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تطبيقا لآية التطهير:

١ - حصرهم تحت كساء واحد حتى لا يمكن اشتراك أحد من أهل الدار فى جلستهم الخاصة، وكأن الحصر المعنوى بـ(إنّما) أراد الرسول الأعظم تطبيقه بالفعل على الأشخاص الذين عناهم الله بالحصر.

٢ - لم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بحصرهم فى نطاق واحد حتى أشار إليهم بقوله : «اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»، فأخبره عنهم - وهو يعلم أنه تعالى مطلع على ذلك - أخبره ليعلن رأيه، فتسمع أم سلمة، ومن شاهد نزول هذه الآية ليفهم أنها خاصة بهم دون سواهم. وكرر تلاوة الآية ثلاث مرات كى يؤكدها، ويتأكد من سماع أهل الدار لها.

٣ - قوله لأم سلمة إنك إلى خير مرتين، إشعار لها بأنها ليست من أهله الذين عناهم الله؛ ولذلك لم يأذن لها بالدخول معهم. وفى الوقت نفسه أكد لها أنها على خير.

وفى الرواية الأخرى التى ذكرها الخازن قول الرسول لها: «إنك إلى خير أنت من أزواج النبى؛ لتعلم أن سبب عدم الإذعان لها بالدخول كونها من أزواجه، وهن لسن من أهله، وإلا فهى على خير مشعرًا برضاه عنها وأنها من أهل الجنة.

فتصريح أم سلمة، وتصريح السيدة عائشة، وعمر بن أبى سلمة، وزينب بنت أبى سلمة، وواثلة بن الأسقع فيما ذكره المحب فى ذخائره لم يُبق مجالا للقول بأن أهل البيت القصد منه الزوجات، أو أنهن يشتركن مع أقرباء النبى المذكورين فى شمول إطلاق أهل البيت عليهن.

إن جذب الرداء من أم سلمة - وقد حاولت أن تكون معهم - لأقوى دليل على عدم الشمول لهن فى الإطلاق، وإلاّ لأذن النبى صلى الله عليه وسلم لها، ولا سيما أنهم فى بيتها، وهى على خير برأى النبى صلى الله عليه وسلم.

وكما أن صريح الحديث أن «الخمسة» سلام الله عليهم كانوا يأكلون، ثم نزلت الآية فى حقهم، ولم تدع أم سلمة إلى مشاركتهم فى الطعام لأن مشاركتها لهم فى ذلك تشعر بدخولها معهم فى «أهل البيت»، وإذا دخلت، فإن النساء الباقيات يدخلن بأجمعن، ولو كن غير موجودات؛ لأن أم سلمة تعتبر ممثلة لهن، وهذا خلاف الغرض الذى يرمى إليه تعالى مما حدا بالرسول الكريم صلى

الله عليه وسلم، على ألا يدعوها إلى الطعام، وألا يدعها تدخل معهم تحت الكساء.

ونفهم بالإضافة إلى ما تقدم أن الله تعالى أنزل آية التطهير فى وقت كان الطعام من صنع « الزهراء » عليها السلام، وهى إحدى الأفراد « الخمسة » المعنيين بالآية الكريمة، كى لا تكون للنساء أى علاقة فى الموضوع، وأى مشاركة.

ونفهم أيضًا من طلب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى بضعته الزهراء أن تدعو بعلها وابنيها أنه كان صلى الله عليه وسلم على علم بما سينزل الله تعالى فى شأنهم من فضل عظيم، وإلّا فلماذا يدعوهم إلى طعام صنع فى دارهم؟

ونستشعر من صنع الزهراء للحريرة، أن ذلك كان فى الظرف الذى استدعى تخيير النساء بين الطلاق والبقاء، وأنه صلى الله عليه وآله كان مضربًا عن تناول طعامهن أيضًا بالإضافة إلى تركهن، الأمر الذى استدعى أن يجلب الطعام له من دار بضعته الزهراء أم الحسنين عليها السلام.

ونفهم من تكرار الحديث تكرار صنع الطعام، وإن كانت الآية الكريمة نزلت بعد صنع الحريرة أول مرة، وكلها كانت من صنع الزهراء سيدة النساء.

وقد أذاع النبى الكريم صلى الله عليه وسلم هذه الكرامة لأهل

بيته، وأخذ يوطدها فى أذهان الناس، ويكررها كلما مر فى صلاة الفجر على «أهل البيت».

وهنا نقطة لابدّ من ملاحظتها، وهى أن آية التطهير - كما يظهر مِن كل مَن نصّ على نزولها - أنها آية مستقلة، وليست جزءًا من آية.

ولم يكشف المفسرون، أو المحدثون، عن الظرف الذى أحاط بالنزول، وهل وافق نزولها مع نزول الآيات التى خصّت نساء النبى صلى الله عليه وسلم، أو كان ذلك من قبل، أو من بعد؟

ولعل وضعها هنا كان لوجود القدر الجامع بينها وبين آيات الأزواج، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم عماد «أهل البيت» فقد كان أبو القاسم - صلى الله عليه وآله وسلم - «القاسم المشترك» للجميع وكلهم من رجال ونساء لا يخرجون عن أهله، أو عن أهل داره وهذا كاف لأن يجعل انسجامًا فى العرض، ووحدة فى السياق بين آية التخيير فى النساء، وآية التطهير فى أهل البيت سلام الله عليهم، وفى هذا الدليل على عصمة أهل البيت المتمثل بالرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وأهل بيته الطاهرين.

وأما عصمة «أهل البيت» من الخطأ فحسبنا الحديث النبوى المجمع على صحته وتواتره: «إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض،

وعترتى أهل بيتى، ولن يفترقا حتى يردّا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما».

وفى الحديث أمران كل منهما يكفى للدلالة على العصمة من الخطأ:

١ - جزم صلى الله عليه وسلم، بصورة قاطعة على أن التمسك بالكتاب وبأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم يستدعى ألّا يضل المسلم عن طريق الحق والصواب.

٢ - حكم صلى الله عليه وسلم حكمًا لا يقبل الشك بأنهما لن يفترقا، ولو جاز الخطأ لافترقا، ولا شك أن الذى يكون مع القرآن لا يتصور فى حقه الخطأ، وهذا ما جعل الإمامية تجمع على حجية إجماع أهل البيت - عليهم السلام - معتبرة خلاف غيرهم كالعدم فلا يضر بالإجماع؛ لأن رأيهم من رأى جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله: ﴿وحى يوحى﴾ فلا يجوز أن يترك رأيهم ويؤخذ رأى غيرهم وهو معرض للخطأ والصواب.

وقد أراد النبى الكريم صلى الله عليه وسلم أن يعرف أمته منزلة عترته العلمية ليكون التمسك بأهل بيته تمسكاً من حيث الولاء، وتمسكاً من حيث العلم، فقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الطبرانى فى حديث الثقلين: «فلا تقدموهما - أى القرآن والعترة -

فتهلكوا، ولا تقصروا عنها فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم».

وقد علق ابن حجر على هذه الفقرات من الحديث الشريف فقال:

«في قوله صلى الله عليه وسلم دليل على أن من تأهل منهم للمراتب العلية، والوظائف الدينية، كان مقدمًا على غيره».

ولا شك أن المقصود من حثّه صلى الله عليه وسلم على التمسك بالقرآن والعترة إنما هو الاهتداء بهما، والاسترشاد بحكمهما وأقوالهما، كي لا يضلوا، وواضح أن من ترك التمسك بهما ضل الطريق بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وسلك طريقًا قد خالف القرآن والسنة، وهذا أمر معلوم من منطوق الحديث ومفهومه».

هذا رأي الإمامية في حجية إجماع «أهل البيت»، وأما رأي المذاهب الإسلامية الأربعة في إجماعهم - سلام الله عليهم - فهو عدم الحجية؛ لأنهم يرون أن أهل البيت بعض الأمة فلا يحقق قولهم إجماعًا.

قال الشوكاني في كتابه إرشاد الفحول ما نصه: «وذهب الجمهور أيضًا إلى أن إجماع «العترة» وحدها ليس بحجة، وقالت الزيدية والإمامية هو حجة». ثم قال: «وقد استدلوا بأحاديث

كثيرة جدًّا تشتمل على مزيد شرفهم، وعظيم فضيلتهم، ولا دلالة فيها على حجية قولهم، وقد أبعد من استدل بها على ذلك».

ويقول عبد العزيز البخارى فى شرحه «كشف الأسرار» على أصول اليزدوى: «وكذا ما تمسك به الفريق الثانى؛ لأن المراد من قوله ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ أزواج النبى صلى الله عليه وسلم.

ثم قال: وكذا قوله: «تركت فيكم الثقلين» من الآحاد، وخبر الواحد ليس بحجة عندهم على أنه يفيد التمسك بالكتاب والعترة، ولا العترة وحدها مع أنه معارض بنحو «أصحابى كالنجوم» الدال على جواز التمسك بكل واحد من الصحابة وكون التمسك مهديًا وإن خالف الصحابى أهل البيت، وحينئذ لا يكون قولهم واجب الاتباع».

أما قوله: إن آية التطهير المقصود منها الأزواج فقد أوضحنا بما لا مزيد عليه، أن المقصود من أهل البيت هم العترة الطاهرة لا الأزواج.

وقد اعترف الشوكانى فى إرشاد الفحول بهذه الحقيقة، فقال ما نصه ردًّا على من قال إنها نزلت فى النساء:

«ويجاب عن هذا بأنه قد ورد بالدليل الصحيح أنها نزلت فى علىّ وفاطمة والحسنين، وقد أوضحنا الكلام فى هذا فى التفسير»

الكبير الذى سميناه (فتح القدير)».

وأما قوله: حديث الثقلين خبر واحد وأنه ليس بحجة عندنا، فهذا مردود لأن خبر الثقلين متواتر ومجمع على صحته، وقد نصّ ابن حجر فى (صواعقه) بأن طرقه كثيرة، وأنه ورد عن نيف وعشرين صحابيًّا، وأنه تكرر الحديث منه صلى الله عليه وآله وسلم فى موارد عديدة اهتمامًا بشأن الكتاب العزيز، والعترة الطاهرة.

وأما قوله: بأن خبر الواحد ليس بحجة عندنا، فهو قول لأحد أعلامنا المتقدمين وإلّا فإن الإمامية، منذ السابق وإلى اليوم، مجمعة على حجية الخبر إذا صح وروده عن المعصوم، وهذا أمر واضح لكل من رجع إلى كتبنا الأصولية.

وأما قوله: إن حديث الثقلين يفيد التمسك بالكتاب والعترة، لا بالعترة وحدها، فهذا صحيح، والإمامية لا ترى غير ذلك، وتجزم معتقدة بأن الكتاب والعترة متلازمان لا يفترقان كما هو صريح الحديث، وهذا هو حجر الأساس فى حجية قول أهل البيت دون سواهم.

وأما قوله: إن حديث الثقلين معارض بنحو «أصحابى كالنجوم»، فقد عرفت أن الحديث ثابت الوضع فلا يقوى على المعارضة.

وكان على صاحب (كشف الأسرار) أن يكشف لنا عن سر

المرجح الذى قدم القول المكذوب على الحديث الثابت، اللهم إلاّ أن يكون السر هو الميل القلبى إلى قوم، والانحراف بالقلب عن آخرين، ويدل على ذلك تقديمه لقول الصحابى بمفرده على رأى أهل البيت بمجموعهم.

وللإمام جلال الدين السيوطى بحث مستفيض فى أهل البيت - قال: «أولاد السيدة زينب من عبد الله بن جعفر رضى الله عنهم موجودون بكثرة» وتكلم عليهم من عشرة أوجه:

١ - أنهم من آل النبى صلى الله عليه وسلم أهل بيته بالإجماع، لأن آل البيت هم المؤمنون من بنى هاشم والمطلب، وأخرج مسلم والنسائى - كما سبق وذكرنا - عن زيد بن أرقم، قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبًا فقال: «أذكركم الله فى أهل بيتى» ثلاثًا، فقيل لزيد بن أرقم: ومن أهل بيته؟ قال: أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده، قيل: ومن هم؟ قال: آل علىّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس.

٢ - أنهم من ذريته وأولاده بالإجماع، وهذا المعنى أخص من الذى قبله. وقال البغوى فى التهذيب: «أولاد بنات الإنسان لا ينسبون إليه، وإن كانوا معدودين فى ذريته، حتى لو أوصى لأولاد أولاد فلان يدخل فيه والد البنت».

٣ - أنهم هل يشاركون أولاد الحسن والحسين عليهم السلام،

فى أنهم ينسبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم؟ الجواب: لا.. وهذا المعنى أخص من الوجه الذى قبله، وقد فرق الفقهاء بين من يسمى ولدا للرجل وبين من ينسب إليه؛ ولهذا قالوا: لو قال وقفت على أولادى دخل ولد البنت. ولو قال: وقفت على من ينسب إلى من أولادى لم يدخل ولد البنت.

وقد ذكر الفقهاء من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه ينسب إليه أولاد بناته ولم يذكروا مثل ذلك فى أولاد بنات بناته، فالخصوصية للطبقة العليا فقط، فأولاد فاطمة عليها السلام الأربعة ينسبون اليه، وأولاد الحسن والحسين ينسبون إليهما فينسبون إليه، وأولاد زينب وأم كلثوم ينسبون إلى أبيهم عمر وعبد الله لا إلى الأم - ولا إلى النبى صلى الله عليه وسلم لأنهم أولاد بنت بنته لا أولاد بنته، فجرى الأمر فيهم على قاعدة الشرع فى أن الولد يتبع أباه فى النسب لا أمه، إنما خرج أولاد فاطمة وحدها للخصوصية التى ورد الحديث بها وهو مقصور على ذرية الحسن والحسين.

أخرج الحاكم فى المستدرك عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل بنى أم عصبة، إلّا ابنى فاطمة أنا وليهما، وعصبتهما» فانظر إلى لفظ الحديث كيف خصّ الانتساب والتعصيب بالحسن والحسين دون أختيهما، لأن أولاد أختيهما إنما ينسبون إلى آبائهم.

ولهذا جرى السلف والخلف على أن ابن الشريفة لا يكون شريفًا ولو كانت الخصوصية عامة فى أولاد بناته، وإن سفلن، لكان ابن كل شريفة شريفًا تحرم عليه الصدقة، وإن لم يكن أبوه كذلك كما هو معلوم؛ ولهذا حكم صلى الله عليه وسلم لابنى فاطمة دون غيرها من بناته؛ لأن أختها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعقب ذكرًا حتى يكون كالحسن والحسين فى ذلك، وإنما أعقبت بنتًا هى أمامة بنت أبى العاص بن الربيع، فلم يحكم لها صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم مع وجودها فى زمنه، فدلّ على أن أولادها، لا ينسبون إليها لأنها بنت بنته، وأما هى فكانت تنسب إليه بناء على أن أولاد بناته ينسبون إليه، ولو كان لزينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد ذكر، لكان حكمه حكم الحسن والحسين فى أن أولادها ينسبون إليه صلى الله عليه وسلم.

هذا تحرير القول فى هذه المسألة، وقد خبط جماعة من أهل العصر فى ذلك ولم يتكلموا فيه بعلم.

٤ - أنهم هل يطلق عليهم أشراف؟ والجواب: أن اسم الشريف كان يطلق فى الصدر الأول على كل من كان من أهل البيت، سواء كان حسنيًّا، أم حسينيًّا، أم علويًّا من ذرية محمد ابن الحنفية، وغيره من أولاد على بن أبى طالب أم جعفريًّا، أم عقيليًّا، أم عباسيًّا، ولهذا تجد تاريخ الحافظ الذهبى مشحونًا فى

التراجم بذلك : يقول الشريف العباسى، الشريف العقيلى، الشريف الجعفرى، الشريف الزينبى، فلما ولى الخلفاء الفاطميون بمصر قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين فقط، فاستمر ذلك بمصر إلى الآن.

وقال الحافظ ابن حجر فى كتاب الألقاب : الشريف ببغداد لقب لكل عباسى، وبمصر لكل علوى، ولا شك أن المصطلح القديم أولى، وهو إطلاقه على كل علوى وجعفرى، وعقيلى، وعباسى، كما صنعه الذهبى، وكما أشار إليه الماوردى من أصحابنا، والقاضى أبو يعلى من الحنابلة، كلاهما فى الأحكام السلطانية، ونحوه قول ابن مالك فى الألفية : «وآله المستكملين الشرفا»، فلا ريب فى أنه يطلق على ذرية زينب المذكورين أشراف، وكم أطلق الذهبى فى تاريخه فى كثير من التراجم قوله : الشريف الزينبى، وقد يقال يطلق على مصطلح أهل مصر، الشريف أنواع عام لجميع أهل البيت، وخاصة بالذرية، فيدخل فيه الزينبية، وأخص منه شرف النسبة، وهو مختص بذرية الحسن والحسين - عليهما السلام -.

٥ - أنهم تحرم عليهم الصدقة بالإجماع لأن بنى جعفر من الآل.

٦ - أنهم يستحقون سهم ذوى القربى بالإجماع.

٧ - أنهم يستحقون من وقف بركة الحبش بالإجماع، لأن بركة

الحبش لم تقف على أولاد الحسن والحسين خاصة، بل وقفت نصفين :

النصف الأول على الأشراف وهم : أولاد الحسن والحسين.

والنصف الثانى على الطالبيين وهم : ذرية على بن أبى طالب، من محمد بن الحنفية وإخوته، وذرية جعفر بن أبى طالب، وذرية عقيل بن أبى طالب، وثبت هذا الوقف على هذا الوجه على قاضى القضاة بدر الدين يوسف السنجارى، فى ثانى عشر من ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة، ثم اتصل ثبوته على شيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام، تاسع عشر من ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم اتصل ثبوته على قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة، ذكر ذلك ابن المتوج فى كتابه إيقاظ المتأمل.

٨ - هل يلبسون العلامة الخضراء؟ والجواب : أن هذه العلامة ليس لها أصل فى الشرع، ولا فى السنّة، ولا كانت فى الزمن القديم، وإنما حدثت فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بأمر الملك الأشرف شعبان ابن حسين، وقال فى ذلك جماعة من الشعراء ما يطول ذكره، من ذلك قول أبى عبد الله بن جابر الأندلسى الأعمى صاحب شرح الألفية المشهور بالأعمى والبصير :

جعلوا لأبناء الرسول علامة إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوّة فى وسيم وجوههم يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

وقال الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشق :

أطراف تيجان أتت من سندس خضر بأعلام من الأشراف
والأشرف السلطان خصصهم بها شرفًا ليعرفهم من الأطراف

وحظ الفقيه فى ذلك إذا سئل أن يقول : ليس هذه العلامة إلاّ بدعة مباحة لا يمنع منها من أرادها من شريف وغيره، ولا يؤثر بها من تركها من شريف وغيره، وبالمنع منها لأحد من الناس كائنًا من كان ليس أمرًا شرعيًا؛ لأن الناس مضبوطون بأنسابهم الثابتة، وليس لبس العلامة مما ورد به شرع، فيتبع إباحة ومنعا، أقصى ما فى الباب أنه أحدث التميز بها لهؤلاء عن غيرهم، فمن الجائز أن يخص ذلك بخصوص الأبناء المنتسبين إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وهم ذرية الحسن والحسين، ومن الجائز أن يعمم فى كل ذريته، وإن لم ينسبوا إليه كالزينبية، ومن الجائز أن يعمم فى كل أهل البيت، كباقى العلوية، والجعفرية، والعقيلية، كل جائز شرعا، وقد يستأنس فيها بقوله تعالى : ﴿يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك، ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ فقد استدل بها بعض العلماء على تخصيص أهل العلم بلباس يختصون به من تطويل الأكمام، وإدارة الطيلسان ونحو ذلك ليعرفوا فيجلوا، تكريمًا للعلم، وهذا وجه حسن، والله أعلم.

٩ - هل يدخلون فى الوصية على الأشراف ؟

١٠ - هل يدخلون فى الوقت على الأشراف؟

والجواب: أنه إن وجد فى كلام الموصى والواقف نص يقتضى دخولهم، أو خروجهم اتبع، وإن لم يوجد فيه ما يدل على هذا ولا هذا، فقاعدة الفقه أن الوصايا والأوقاف، تنزل على عرف البلد، وعرف مصر من عهد الخلفاء الفاطميين إلى الآن أن الشريف لقب لكل حسنى وحسينى خاصة، فلا يدخلون على مقتضى هذا العرف، وإنما قدمت دخولهم هذا فى وقف بركة الحبش؛ لأن واقفها نص فى وقفه على ذلك حيث وقف نصفها على الأشراف ونصفها على الطالبيين.

ويقول الأستاذ أحمد فهمى: إن الشرف، بمعنى الرفعة والفضيلة كان يطلق فى الصدر الأول، منذ انبثاق نور الإسلام، على كل من كان من أهل البيت، الذين ينتظمهم قول القائل:

علىّ، وعباس، عقيل، وجعفر وحمزة هم آل النبى بلا نكر

وإن نظرة إلى تاريخ الذهبى الكبير، تراه مملوءًا فى تراجمه، بالشريف العباسى، الشريف العلوى، الشريف العقيلى، الشريف الجعفرى، الشريف الحمزى.. إلخ هذا. وإن تخصيص الشرف بذرية السبطين، ليس بشرعى، بل هو عرفى، وقد تواضع عليه القوم، وأحدثوه بعد القرون الثلاثة الأولى، لمزيد قرب السبطين من النبى صلى الله عليه وسلم، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «إن كل

بنى أب عصبة ينتمون إليها إلاّ ولد فاطمة، فأنا وليهم وعصبتهم، وهم عترتى، خلقوا من طينتى، ويل للمكذبين بفضلهم، ومن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله».

وشرف ذرية السبطين عام، لا فرق فيه بين أولاد ذكورهما، وأولاد إناثهما؛ لأبوة النبى صلى الله عليه وسلم عليهم، كتابًا، وسنّة وإجماعًا، فقوله تعالى ﴿ومن ذريته، داود وسليمان﴾ الآية، آية على أن ابن البنت من الذرية، إذ جعل الله عيسى من ذرية نوح أو إبراهيم.

وفى مطلب السؤال فى مناقب آل الرسول، لمحمد بن طلحة، قال: قد نقل أن الشعبى كان يميل إلى آل الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان لا يذكرهم إلاّ وهو يقول: هم أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم وذريته، فنقل عنه ذلك إلى الحجاج بن يوسف، وتكرر ذلك عنه، وكثر نقله عنه، فأغضبه ذلك من الشعبى ونقم عليه، فاستدعاه الحجاج يومًا، وقد اجتمع لديه أعيان المصرين الكوفة، والبصرة، وعلماؤهما، وقراؤهما، فلما دخل الشعبى لم يهش له، ولا وفاه حقه من الرد عليه، فلما جلس قال له: يا شعبى ما أمر بلغنى عنك، فيشهد عليك بجهلك، قال: ما هو يا أمير! قال: ألم تعلم أن أبناء الرجل هل ينسبون إلاّ إليه، والأنساب لا تكون إلاّ بالآباء، فما بالك تقول عن أبناء علىّ إنهم أبناء رسول

الله صلى الله عليه وسلم وذريته، وهل لهم اتصال برسول الله صلى الله عليه وسلم، إلاّ بأمهم فاطمة، والنسب لا يكون بالبنات، وإنما يكون بالأبناء؟

فأطرق الشعبي ساعة، حتى بلغ الحجاج فى الإنكار عليه، ووقع إنكاره فى مسامعه والشعبي ساكت، فقال: يا أمير ما أراك إلا تكلمنا بكلام من يجهل كلام الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم أو يعرض عنهما، فازداد الحجاج غضبًا منه وقال: ألمثلى تقول هذا يا ويلك؟ قال: نعم هؤلاء قراء المصرين، حملة الكتاب العزيز، أليس قد قال الله تعالى: ﴿يا بنى آدم، يا بنى إسرائيل﴾ وعن إبراهيم ﴿ومن ذريته عيسى﴾، وهل كان اتصال عيسى بالثلاثة إلاّ بأمه، وقد صح النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا ابنى سيد شباب أهل الجنة»، فخجل الحجاج، وعاد يتلطف الشعبي.

وقد قال أبو بكرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، على المنبر والحسن إلى جنبه، ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة، ويقول: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

وقد سأل عراقى، ابن عمر رضى الله عنهما، عن دم البعوض، يصيب الثوب، فقال ابن عمر: انظروا إلى هذا يسأل عن دم

البعوض، وقد قتلوا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا».

وفى صحيح الترمذى، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يخطب إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام، وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر، فجمعهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما، وقال جابر بن عبد الله: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يوم عرفة، وهو على ناقته يخطب فسمعته يقول: «يأيها الناس قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتى، أهل بيتى» ومما أخرجه الطبرانى فى كبيره، عن جابر والخطيب فى تاريخه عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى جعل ذرية كل نبى فى صلبه، وجعل ذريتى فى صلب علىّ»، أى أولاده من فاطمة دون غيرها، فمن خصائصه صلى الله عليه وسلم، أن أولاد بناته ينسبون إليه.

وقد قال عمر رضى الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة، إلا سببى ونسبى،

وكل ولد أم فإن عصبتهم لأبيهم، ما خلا ولد فاطمة، فإنى أنا أبوهم وعصبتهم».

وأخرج الطبرانى أنه صلى الله عليه وسلم قال: «كل بنى أم ينتمون إلى عصبة إلاّ ولد فاطمة، فأنا وليهم وعصبتهم».

ولهذا الحديث طرق كثيرة، يقوى بعضها بعضًا، ويشهد لصحته، صحة حديث تزوج عمر بأم كلثوم، فقد خطبها عمر إلى علىّ، فذكر له صغرها، فقيل له: إنه ردك، فعاوده، فقال له على: أبعث بها إليك، فإن رضيت فهى امرأتك، فأرسل بها إليه، فكشف عن ساقها، فقالت له: لولا أنك أمير المؤمنين، للطمت عينيك، وفى رواية: لكسرت أنفك، ثم جاءت أباها فقالت: بعثتنى إلى شيخ سوء، وأخبرته، فقال لها: يا بنية إنه زوجك، فتزوج بها على مهر أربعين ألفًا، ثم جاء عمر إلى المهاجرين فقال: زفوا فزفوه، فقالوا: بمن تزوجت قال: بنت علىّ، إن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «كل نسب وسبب سيقطع يوم القيامة، إلاّ نسبى وسببى، وكنت قد صاهرت، فأحببت هذا أيضًا».

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ابن أخت القوم منهم»، وقد استدل به الإمام أبو بكر من كبار الحنابلة، على أنه لا يجوز دفع الزكاة إلى ولد هاشمية من غير هاشمى اعتبارًا بأمه. وعن زيد بن أرقم، رضى

الله عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنى تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله عز وجل، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تلحقون بى فيهما».

وعنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى عز وجل فأجيبه، وإنى تارك فيكم الثقلين أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله عز وجل وخذوا به - وحث فيه ورغب فيه - ثم قال وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاث مرات» فقيل لزيد: من أهل بيته أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: بلى إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده، قيل: ومن هم؟ قال: آل على وآل جعفر وآل عقيل وآل عباس، قيل: أكل هؤلاء حرم عليهم الصدقة؟ قال: نعم»، أخرجه مسلم ولا خلاف فى انعقاد الإجماع على شرف السبطين، وأختيهما لشرف أمهم عليها السلام، بولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، فوجب أن يطّرد انعقاده فى كل من له بالنبى صلى الله عليه وسلم ولادة من قبل أم أو أب.

وقد قال العلامة الزرقانى، فى شرح المواهب عند تعريف

المصنف بالسيدة زينب بنت الزهراء عليها السلام: إنها تزوجت بابن عمها عبد الله بن جعفر، وولدت له عدة أولاد منهم علىّ وأم كلثوم، وأم كلثوم هذه تزوجت القاسم بن محمد بن جعفر، وولدت له عدة أولاد، منهم فاطمة تزوجت حمزة بن عبد الله بن الزبير، وله منها عقب، ثم قال: بالجملة فعقب عبد الله بن جعفر، انتشر من علىّ وأخته أم كلثوم ابنى زينب بنت الزهراء عليها السلام.

قال الزرقانى: ولا ريب أنهم تحرم عليهم الصدقة إجماعًا؛ لأن بنى جعفر من الآل وأنهم يستحقون سهم ذوى القربى بالإجماع، وأنهم من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم وأولاده عليهم السلام إجماعًا.

وقد ورد فى البخارى، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قسم مروطا بين نساء من نساء المدينة. فبقى مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى عندك، يريدون أم كلثوم بنت علىّ، فقال عمر: أم سليط أحق، وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد، وتزفر تخيط،

وقد قال ابن القيم فى كتابه: (جلاء الأفهام، فى الصلاة والسلام على خير الأنام)، فى فصل عقده لمعنى الذرية: فالذرية

الأولاد وأولاد أولادهم، وهل يدخل فيها أولاد البنات، فيه قولان للعلماء هما روايتان عن أحمد، أحدهما يدخلون وهو مذهب الشافعي، والثانى لا يدخلون وهو مذهب أبى حنيفة، واحتج من قال بدخولهم بأن المسلمين يجمعون على دخول أولاد فاطمة عليها السلام فى ذرية النبى صلى الله عليه وسلم، المطلوب لهم من الصلاة؛ لأن أحدًا من بناته لم يعقب غيرها.

ثانيا : قال الله سبحانه وتعالى : ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنًا إن الله غفور شكور﴾.

١ - يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿لا أسألكم عليه أجرا﴾[1] أى قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جعلا ﴿إلا المودّة فى القربى﴾

قال الزجاج : (إلا المودّة)، استثناء ليس من الأول أى إلّا أن

---

(١) يقول الشوكانى فى تفسيره : إن المعنى «لا أسألكم أجرًا قط، ولكن أسألكم المودة فى القربى التى بينى وبينكم. أرقبونى فيها ولا تعجلوا إلى ودعونى والناس».

وعن أبى الديلم، قال : لما جيء بعلى بن الحسين رضى الله عنهما أسيرًا فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة، فقال علىّ بن الحسين رضى الله عنهما : أقرأت القرآن؟ قال : نعم، قال : أقرأت آل حم، قال : قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم، قال : ما قرأت قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى؟ قال : وإنكم لأنتم هم؟ قال : نعم.

تودّون لقرابتى فتحفظون - والخطاب لقريش خاصة - قاله ابن عباس وأبو مالك والشعبي وغيرهم.

قال الشعبي: أكثر الناس علينا فى هذه الآية، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها - فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أوسط الناس فى قريش فليس بطن من بطونهم إلّا وقد ولده، فقال الله له: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلّا المودّة فى القربى﴾ إلّا أن تودون فى قرابتى منكم، أى تراعوا ما بينى وبينكم فتصدقونى - فـ(القربى) ها هنا قرابة الرحم، كأنه قال: اتبعونى للقرابة إن لم تتبعونى للنبوّة.

قال عكرمة: وكانت قريش تصل أرحامها فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قطعته، فقال: «صلونى كما كنتم تفعلون»، فالمعنى على هذا: قل لا أسألكم عليه أجرًا، لكن أذكركم قرابتى على استثناء ليس من الأول - ذكره النحاس.

وفى البخارى عن طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إلّا المودّة فى القربى﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد - فقال ابن عباس: عجلت! إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلّا كان له فيهم قرابة فقال: «إلا أن تصلوا ما بينكم من القرابة» فهذا قول - وقيل: القربى قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم، أى لا أسألكم أجرًا إلّا أن تودّوا

قرابتى وأهل بيتى كما أمر بإعظامهم ذوى القربى. وهذا قول على ابن حسين وعمرو بن شعيب والسدى، وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس، لما أنزل الله عز وجل ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلّا المودّة فى القربى﴾ - قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين نودّهم؟ قال: «علىّ وفاطمة وأبناؤهما».

ويدل عليه أيضًا، ما روى عن علىّ رضى الله عنه قال: شكوت إلى النبى صلى الله عليه وسلم حسد الناس لى فقال: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة أوّل من يدخل الجنة، أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذريتنا خلف أزواجنا».

وعن النبى صلى الله عليه وسلم: «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتى وآذانى فى عترتى، ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا، إذا لقينى يوم القيامة».

وقال الحسن وقتادة: المعنى إلّا أن يتودّدوا إلى الله عز وجل ويتقربوا إليه بطاعة. فـ «القربى» على هذا بمعنى القربة - يقال: قربة وقربى بمعنى كالزلفة والزلفى.

وروى فزعة بن سويد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم: «قل لا أسألكم على

ما أتيتكم به أجرًا إلّا أن توادّوا وتقربوا إليه بالطاعة».

وروى منصور وعوف عن الحسن ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلّا المودة فى القربى﴾ قال: يتودّدون إلى الله عز وجل ويتقربون منه بطاعته.

وقال قوم: الآية منسوخة، وإنما نزلت بمكة، وكان المشركون يؤذون النبى عليه السلام، فنزلت هذه الآية وأمرهم الله بمودة نبيه صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه، فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قال ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلّا على رب العالمين﴾، فأنزل الله تعالى: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلّا على الله﴾ فنسخت بهذه الآية وبقوله: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ وقوله: ﴿أم تسألهم خرجًا فخراج ربك خير﴾ وقوله: ﴿أم تسألهم أجرًا فهم من مغرم مثقلون﴾.

قاله الضحاك والحسين بن الفضل، ورواه جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال الثعلبى: وليس بالقوى، وكفى قبحًا بقول من يقول إن التقرب إلى الله بطاعته ومودّة نبيه صلى الله عليه وسلم وأهل بيته منسوخ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: «من مات على حب آل محمد مات شهيدًا، ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوار قبره الملائكة والرحمة، ومن مات على بغض آل

محمد جاء يوم القيامة مكتوبًا بين عينيه آيس اليوم من رحمة الله، ومن مات على بغض آل محمد لم يرح رائحة الجنة، ومن مات على بغض آل بيتي فلا نصيب له في شفاعتي». والزمخشري في تفسيره يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات على حب آل محمد مات مؤمنًا مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنّة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرًا، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة». قال النحاس: ومذهب عكرمة ليست بمنسوخة، قال: كانوا يصلون أرحامهم، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم، قطعوه فقال: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلاّ أن تودّوني وتحفظوني لقرابتي ولا تكذبوني»، قلت: وهذا هو معنى قول ابن عباس في البخاري والشعبي عنه بعينه، وعليه لا نسخ. قال النحاس: وقول الحسن حسن، ويدل على صحته الحديث المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا أسألكم على ما أنبئكم به من البينات والهدى أجرًا، إلاّ أن توادّوا الله عز وجل، وأن تتقربوا إليه بطاعته»، فهذا المبين عن الله عز وجل قد قال هذا، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم

قبله : (إن أجرى إلاّ على الله).

وقيل فى سبب نزول الآية عن الحسن رضى الله عنه : نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون، فقالت الأنصار : نحن فعلنا، وفخرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن ابن عباس قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا فخطب فقال للأنصار : « ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بى، ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله لى، ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله بى ألا تردّون على » فقالوا : بم نجيبك؟ قال : « تقولون ألم يطردك قومك فآويناك، ألم يكذبك قومك فصدقناك » فعدد عليهم، قال : فجثوا على ركبهم فقالوا : أنفسنا وأموالنا لك. فنزلت ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلاّ المودّة فى القربى﴾ وقال قتادة : قال المشركون : لعل محمدًا فيما يتعاطاه يطلب أجرًا، فنزلت هذه الآية ليحثهم على مودّته ومودّة أقربائه. قال الثعلبى : وهذا أشبه بالآية لأن السورة مكية، قوله تعالى : ﴿ومن يقترف حسنة﴾ أى يكتسب.

وقال ابن عباس : (ومن يقترف حسنة) قال المودّة لآل محمد صلى الله عليه وسلم (نزد له فيها حسنا) أى نضاعف له الحسنة بعشر فصاعدًا ﴿إن الله غفور شكور﴾.

قال قتادة : (غفور) للذنوب، (شكور) للحسنات، وقال

السدى : (غفور) لذنوب آل محمد عليه السلام، (شكور) لحسناتهم.

وقال الحسن بن الفضل، ورواه ابن جرير عن الضحاك، أن الآية نزلت بمكة، وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرهم الله بمودته، فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، فأنزل الله عليه. ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلاّ على رب العالمين﴾. وأنزل عليه ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلاّ على الله﴾.

ويشير لتلك الآية الكريمة سيدى محيى الدين بن عربى فى قوله :

أرى حب أهل البيت عندى فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربى
فما اختار خيرُ الخلق منّا جزاءه على هديه إلاّ المودة فى القربى

ويشير الإمام الشافعى إلى مضمون الآية الكريمة فيقول :

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله فى القرآن أنزله

ويقول الشيخ شمس الدين بن العربى :

رأيت ولائى آل طه فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربى
فما طلب المبعوث أجرًا على الهدى بتبليغه إلاّ المودة فى القربى

وروى البزار والطبرانى أن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما خطب يومًا فقال : «من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن ابن محمد صلى الله عليه وسلم، أنا ابن البشير، أنا ابن

النذير، أنا ابن آل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كل مسلم، وأنزل فيهم: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلّا المودّة فى القربى، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنًا﴾، فاقتراف الحسنات مودّتنا أهل البيت».

وأفاد الفخر الرازى ما نصّه؛ وإذا ثبت هذا يعنى أنها نزلت فى علىّ، وفاطمة وابنيهما، وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، وتدل عليه عدة وجوه.

(أ) قوله تعالى ﴿إلّا المودة فى القربى﴾ ووجه الاستدلال به أن آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يئول أمرهم إليه، فكل من كان من أمرهم إليه وأشد وأكمل كانوا هم «الآل»، ولا شك أن فاطمة وعليًّا والحسن والحسين رضى الله عنهم، كان التعلق بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام، أشدّ التعلقات فوجب أن يكونوا هم الآل.

(ب) ولاشك أن النبى عليه الصلاة والسلام، كان يحب فاطمة رضى الله عنها، وثبت بالنقل المتواتر عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان يحب عليًّا والحسن والحسين (كما سيرى القارئ فى الفصول القادمة)، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله تعالى: ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾، ولقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾، ولقوله: ﴿إن كنتم تحبون الله

فاتبعونى يحببكم الله﴾ ولقوله سبحانه وتعالى : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾.

(ج) أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد فى الصلاة، فإن ملايين المسلمين فى كل العصور والأزمان يصلّون على النبى وآله فى صلواتهم فى أثناء الليل والنهار.

أليس كل مسلم كان أو سيكون يختم صلاته قائلاً : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ».

وهذا التعظيم لم يوجد فى حق غير الآل فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، وسنزيد القارئ تفصيلاً فى الفصول القادمة إن شاء الله.

وأخيرًا - فقد روى أبو نعيم بسنده عن جابر - قال : « جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اعرض على الإسلام فقال : « تشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، قال : تسألنى عليه أجرًا؟ قال : لا، إلاّ المودة فى القربى، قال : قربى أو قربك؟ قال : قربى. قال : هات أبايعك - فعلى من لا يحبك، ولا يحب قربك لعنة الله، قال صلى الله عليه وسلم : آمين.